Route Educational & Social Science Journal

Volume 6(11); December 2019

Artical History

Received/ Geliş	Accepted/ Kabul	Available Online/yayınlanma
15.12.2019	25.12.2019	30.12.2019.

THE SULTAN MOHAMED ETHANİ…CONQUEROR AND BUİLDER OF MUSLİM'S CAPİTAL İN EUROPE

السلطان مُحَمَّد الثاني..فاتح و مشيّد عاصمة الإسلام بأوروبا

فريدة قاسي– طالبة سنة ثانية دكتوراه

جامعة يحي فارس بالمدية– الجزائر

Kaci Farida- Mohamed Fares, Medea University - Doctoral Student(2ndyear)University, Algeria

الملخّص

عرفت الدولة العثمانية على مر أزمانها وحقباتها ظهور شخصيات فذّة شهد لها التاريخ حنكتها و عبقريتها و عظمة أعمالها الحربية و الحضارية منها. و من بينها، إن لم نقل أهمها كان السلطان مُحَمَّد الثاني، الملقب بالفاتح، و الذي بقدر ما صنع مجد السلطنة العثمانية، و وسع من رقعتها سيما بفتوحاته في أوروبا الشرقية و استيلائه على عاصمة الإمبراطورية الرومانية البيزنطية، انهالت عليه أقلام المؤرخين الغربيين بسلسلة من الشبهات و الافتراءات للتشكيك في شخصيته، و ضرب أبطال الأمة الإسلامية، و التنزيل بأعماله التاريخية منزلة الحضيض، فما سر عظمة السلطان الفاتح؟ و ما أهم أعماله؟ و ما أثر انجازاته؟

الكلمات المفتاحية: مُحَمَّد الثاني الفاتح ، أعماله الحربية ، أعماله الحضارية ، المؤرخين الغربيين.

Abstract

The Ottoman Empire has witnessed the emergence of outstanding personalities throughout its history .These personalities were known by their experience, genius and the greatness of their works in civilization and war. Among them, Sultan Mohamed the second, nicknamed the Conqueror, who made the glory of the Ottoman Sultanate, extended its territory, especially with his conquests in Eastern Europe and his seizure of the capital of the Roman Byzantine Empire. He was a victim of western historians' series of suspicions and attempts to slander his personality as well as that of the heroes of the Islamic nation, and diminish their historical status. What is the secret of the greatness of the conqueror Sultan? And what is his most important works? What is the impact of his achievements?

Key words: Mohammed 2 nd, war works, civilization works, Western historians.

مدخل :

لا يخلوا كتاب عن تاريخ العالم إلاّ وذكرت سيرة واحد من عظام سلاطين الدولة العثمانية كمحمد الثاني الملقب بالفاتح،وهذا لمكانته الخاصة في التاريخ الإسلامي عبر القرون، ولدوره الفريد الذي قام به في إنجازه لما عجز سابقوه من الخلفاء والسلاطين المسلمين طيلة مدة ناهزت الثمانية قرون من الزمن،بفتحه لعاصمة الإمبراطورية البيزنطية،والتي استعسر دخلوها، ولم تبتسم إلاّ لشخصيته، والذي ما كان له أن يتم على يديه لولا إصراره،وحنكته،ودقة تخطيطاته،وتنظيماته مع تبصره لوقائع الأمور،واستفادته من تجارب الأولين ممن سبقوه في حصارها ليحظى بإنجازه التاريخي هذا بشرف تحقيق بشارة المصطفى (صلى الله عليه و سلم).

لقد كان تناولنا لجوانب مضيئة من شخصية السلطان مُحَمَّد الثاني وسيلة أردناها بهدف إحياء سيرة بطل من أبطال الأمة الإسلامية ذو التأثير الفعال في تاريخها، ممن كانت لها كل الخبرة في الاحتكام إلى سنن الله في بناء صرح الدولة العثمانية،والنهوض بها في مختلف

مجالات الحياة من سياسية،وعسكرية،واجتماعية،واقتصادية،فدينية،وعلمية بسلسلة من الأعمال الحضارية القيمة، ناهيك عن قيمه ومبادئه التي يشهد لها التاريخ.

كما رأينا في حاجة القادة والحكام إليها لدراستها وفهمها والسير بخطاها لتكون نبراسا و منطلقا لهم، أمر تقتضيه الضرورة،وفوق كل هذا كان لكثرة الشبهات التي ألصقت به من المؤرخين الغربيين لتشويه صورة الفتح العثماني و قائده،بالتأكيد على قبح صفاته محركا لنا لتكسير مثل تلك المزاعم والتحامل الواردة عليه، وهذا بتبيان حسن معاملاته،وتفتح آرائه،وعظمة أعماله،وفتوحاته ردا على كل من خولت له نفسه المساس بعظمة وجلالة الفتوحات العثمانية،وأهميتها في إعلاء كلمة الإسلام في بقاع عديدة من أوروبا الشرقية، واستكمال حركة الجهاد التي حمل عاتقها سلاطين آل عثمان في الفترة الحديثة.

لمثل هذه الأسباب ولغيرها ممن تعذر لنا ذكرها، اندرجت مداخلتنا الموسومة" **السلطان مُحَمَّد الفاتح.... فاتح ومشيد عاصمة الإسلام بأوروبا**"،والمندرجة ضمن المحور الخاص بالشخصيات التاريخية في الفترة الحديثة، و لقد تمحورت إشكاليتنا على النحو الآتي:

ما سر عظمة السلطان مُحَمَّد الثاني ؟ما أهم إنجازاته ؟ وما أثرها على العالمين الإسلامي والأوروبي ؟كيف كان موقف العالم من فقدانه ؟ ما نظرة المؤرخين الغربيين منه؟

للإجابة على كل هذه التساؤلات ارتأينا تناول شخصية الفاتح وأعماله الجليلة،باعتمادنا على المنهج التاريخي الوصفي الملائم لسرد جوانب ولوع السلطان العثماني، كما استعنّا بالمنهج التحليلي النقدي القائم على تحليل نتائج وانعكاسات الفتوحات التي قادها على العالمين الإسلامي والأوروبي،مع نقد للمواقف المختلفة ممن أرخوا للدولة العلية، ولأجل ذلك استسهلنا مداخلتنا بالتعريف بشخصية مُحَمَّد الثاني من مولده ونشأته وصفاته، ثم تطرقنا إلى عرض أعماله وفتوحاته العسكرية مركزين على فتح عاصمة الخلافة الإسلامية استانبول وانعكاساته،ثم عرجنا على ذكر أعماله الحضارية،بعدها تطرقنا إلى عرض مختلف المواقف لمؤرخي الدولة العثمانية زمن الفاتح، فخاتمة ذيّلناها بجملة من المصادر والمراجع كانت لنا عونا طيلة انجاز مداخلتنا هذه.

أ–التعريف بشخصية محمد الفاتح:

1. مولده ونشأته:

هو مُحَمَّد الثاني بن مراد الثاني بن مُحَمَّد الأول سابع سلاطين آل عثمان الملقب بالفاتح و أبي الخيرات(الصلابي،2006.ص ص :83)،من مواليد 26 رجب من عام 833 هجرية الموافق ل20 أفريل1429م بأدرنة،أين قضى فيها أيام طفولته الأولى بجوار والده،وتحت رعايته،والذي أهتم بتربيته الجسمية و العقلية و الدينية،بتدريبه على ركوب الخيل،والرماية،والمبارزة بالسيف،كما أقام له معلما من خيرة أساتذة عصره،وهو الملأ أحمد بن إسماعيل الكوراني،فدأب معه على تلاوة القرآن،بينما ترعرع في كنف أمه الأميرة النصرانية،وعلى حكايات شعبها،فورث منها طيبتها،وسعة فكرها،مثلما أخذ عن أبيه الشجاعة و الصبر،و المعرفة بأمور الحرب،والإتقان في وضع خططها العسكرية،وحصار المدن،وقيادة العمليات،كما تشرّب من روح الدين الإسلامي،فدرس تاريخه من فترة النبوّة حتى عصره(فهمي، 1993.ص ص : 31–32).

فاق السلطان الفاتح أقرانه في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء،وتتلمذ على أكبر الشيوخ معرفة بالرياضيات،والجغرافيا،والفلك،والتاريخ،كما كان مولعا بقراءة سير العظماء و الأبطال كحياة القياصرة الكبار أمثال أوغسطين،و قسطنطين الأكبر،و أعجب بالأسكندر المقدوني،وقرأ سيرة ثيمورلنك التتاري(فهمي، 1993.ص34 :)،كما دأب الفاتح على مراسلة العلماء و المثقفين من الأمراء منذ توليته لإمارة منغيسيا،فتوافد العلماء و الشعراء و الفنانين إلى عاصمة ملكه من فرس،وعرب، و لاتين،و....(فهمي، 1993.ص : 35).

خلف السلطان مُحَمَّد الثاني والده السلطان مراد الثاني على العرش بعد وفاته في 16 محرم من عام 855 هـ الموافق ل 18 فبراير من عام 1451 م،وهو شاب لا يتجاوز الثانية و العشرين ربيعا،بعد أن وكلت له إمارة منغيسيا بغرب الأناضول،وبوفاة أخيه الأكبر – الأمير علاء الدين المفاجئ عام 1444م– اعتلى بعدها العرش لأول مرة،بينما قرر والده الاعتزال في بورصة،إلاّ أنه و بثورة الإنكشارية عليه،مع انتشار الفوضى في أركان الدولة، قرر والده السلطان مراد الثاني العودة إلى العرش،فعمل على استتباب الأمن بها،بعدها و على إثر وفاته– و لما كان الوريث الشرعي الوحيد– فقد تسلم مقاليد السلطنة ليقودها

نحو المجد الرفيع بسلسلة من الفتوحات،تمكن من خلالها من توسيع رقعتها في أوروبا،و آسيا الصغرى بعد أن دام حكمه ثلاثين عاما(سيد رضوان، 1986.ص : 11).

"كان الفاتح ميالا إلى الشعر بموهبته الفطرية و طبيعته الفنية، إذ كان يقرضه قرضا باللغة التركية و الفارسية"(سيد رضوان، 1986،ص14)،وبلغ ولعه به حتى أنه كان في بلاطه نحو ثلاثين شاعرا بمراتبهم الشهرية(سيد رضوان،1986.ص :13)،كما أشتهر باستدعاء أشهر الرسامين الإيطاليين منهم جنتيلي بليني، والمثّال البندقي بارثولوميو،وكان بناءه لجامعه الشهير أدلة ساطعة على طبيعة السلطان الذوّاقة لروائع الفن،وتشجيع أصحابه دون تعصب أو تحامل ديني،ومذهبي أمام سعة ثقافته اللغوية، إذ كان معروف عنه إتقانه للغات عديدة كاليونانية، واللاتينية،والسلافية،والتركية،والعربية، والفارسية،كما عرف عنه ولعه بالترجمة،حين أمر بترجمة كتاب بطليموس إلى اللغة العربية، وكتاب بلوتارخ المتناول لحياة مشاهير الرومان إلى اللغة التركية(سيد رضوان، 1986.ص : 14).

2-صفاته:

تصف المراجع التاريخية مورفولوجية السلطان الفاتح كالأتي" لقد كان قمحي اللون، متوسط الطول،متين العضلات،كثير الثقة بنفسه،ذا صبر ثاقب،وذكاء حاد،ومقدرة على تحمل المشاق،يحسن ركوب الخيل،واستعمال السلاح" أما عن سماته العقلية "فقد كان محبا للتفوق،ميالا للسيطرة و الطموح،سريعا في فهم المواقف،يحسن معالجة الأمور،كثير اليقظة،بعيد النظر،محبا للعلماء و رجال الأدب،حتى أنه لا تخلو مائدته من بعضهم،بل كان يجد متعة في مناقشتهم،وسماع نتاجهم، كما كان محبا للفنون،ذواقا للموسيقى و الرسم و الأدب و حفظ الشعر،مهتما بدراسة الفلك(سيد رضوان، 1986.ص :37) ،إذ كانت جل دراسته لتقويم نفسه،و إصلاح عقله،وفوق امتيازه الثقافي و العسكري، فقد نال كفاية عظيمة في الإدارة،والقانون،بإنشائه لدولة عظيمة بعد أن قضى على دولة كانت في يوم من الأيام لا تقهر، فوطد دعائم الملك العثماني،وأكسبه النصر الخارجي،و قنّن القوانين،وأشاع الأمن و الطمأنينة بين شعبه من المسلمين و النصارى(سيد رضوان، 1986.ص : 38).

كما كانت له خبرة في شؤون المالية،وتحديد أمورها بشكل يمنع الإسراف و الترف،وركّز جهوده على تنمية كتائب الجيش و تنظيمها،وزيادة مرتبات الجند،و تحديث أسلحتهم،و تطوير إدارة الأقاليم(الصلابي،2006.ص :83)،بينما تجلى حزمه عندما غلب على ظنه أن هناك تقصير أو

تكاسل من جانب قائد الأسطول العثماني بالطة أوغلي عند حصاره للقسطنطينية،إذ أرسل إليه قائلا: "إما أن تستولي على هذه السفن و إما أن تغرقها،وإذ لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا"(الصلابي، 2006.ص :83)،ولما لم يحقق القائد ما أمره به حاكمه عزل،وعين حمزة باشا خليفة له .

أمّا شجاعته فقد ظهرت للعيان من خلال خوضه المعارك بنفسه،وتصدره لقيادة الجيوش، ومقاتلة الأعداء بسيفه،ونداءاته الملهبة للحماس الإسلامي،بينما تجسّدت عدالته في معاملة لأهل الكتاب وفق ما نصّت عليه تعاليم الشريعة الإسلامية،بمنحه لهم حرية ممارسة حقوقهم الدينية،إذ لم يتعرّض أحد من النصارى في دولته زمن حكمه للظلم و التعدي على حرمته،بل أكرم زعمائهم،وأحسن إلى رؤسائهم،فكان شعاره العدل أساس الملك (أوف كوندور،أوزتك،2009.ص :21)،وكانت لرحابة صدره،وسماحته لأصحاب العقائد المخالفة لعقيدته أن تجلتا في قول المؤرخ الإنجليزي نورمن دانييل:"إن فترة التوسع التركي كانت إحدى الفترات التي قلّ فيها الفزع و الإرهاب إلى حد كبير،وأن فكرة التسامح الديني في العالم الإسلامي استعيرت من الممارسات الإسلامية"(سيد رضوان، 1986.ص ص : 14-15)،كما قبل كتاب المؤرخ اليوناني قريتوبولوس المتضمن لحياة الفاتح بالرغم مما فيه من بعض المطاعن عن سيرته الشخصية.

كانت أهم وأجل الصفات من التي تحلى بها السلطان الفاتح هي عدم الاغترار بقوة النفس،وكثرة الجند،وسعة السلطان،إذ أنه عند دخوله للقسطنطينية نزل من صهوة جواده،وحمد الله شاكرا على ما أنعمه به من نصر(ملزياتيك،1986.ص :21)،وترحم على الشهداء،وسأله أن يمنحهم الشرف و المجد،ولشعبه الفخر و الشكر(ملزياتيك، 1986.ص :22)،إذ أنّه أسند فضل انتصاراته و فتحه العظيم إلى الله تعالى،فنهج لذلك لسانه بالحمد و الثناء لمولاه الذي نصره و أيده،فكان دليل على عمق إيمانه بالخالق العالي،وممّا يشهد على عمق إخلاصه لدينه و عقيدته،أشعاره التي اتخذها أداة لمناجاة مولاه عزّ و على(الصلابي، 2006.ص ص :139)،كما كان قوي العزيمة،ذا جرأة وإقدام،لا يعترف بالمستحيل،ذو طموح لا حد له لإنشاء إمبراطورية تضم الشرق والغرب على غرار إمبراطورية الإسكندر الكبير.

أما في تواضعه اتجاه العلماء و رجال الدين،كتب السيد توماس أرنولد أحد كبار المستشرقين الإنجليز في كتابه "الخلافة" قائلا: "إذا كان أحد السلاطين العثمانيين ممن يستحق بجدارة أن يطلق عليه أعظم لقب يمنحه له العالم الإسلامي، فهو بدون شك مُحَمَّد الثاني،بعد أن أسس عاصمة الإمبراطورية التركية في القسطنطينية"(سيد رضوان، 1986.ص ص : 14-15)،كما أعد أول سلطان

عثماني،وحاكم مسلم يطلق عليه أهل أوروبا لقب السيد العظيم le grand seigneur،والذي ظلّ يطلق على سلاطين آل عثمان ممن أتوا من بعده .بينما ظهرت صرامته و قساوته على من يشم فيهم رائحة الغدر و الدسائس،ولو كان من المقربين إليه. فعندما ثبتت عنده مؤامرة وزيره الأعظم خليل باشا مع الإمبراطور البيزنطي،عمد مُحَمَّد الفاتح إلى مصادرة أمواله،وسجنه في أدرنة،ولما شمّ الأنانية و الحقد على قادته مع الإضرار بمصالح الدولة العليا عمد إلى استئصال بعضهم.

ب–أعماله العسكرية وفتوحاته:

1. فتح القسطنطينية:

وضع مُحَمَّد الفاتح نصب عينيه وصية والده لإتمام ما بدأه أجداده في أوربا،بفتح العاصمة البيزنطية،وتحقيق الحلم الذي لا طالما راودا المسلمين منذ فتره طويلة،إذ عمد إلى سلسلة من الاستعدادات لبناء قلعه روميليي حصار في الجانب الأوربي في أضيق نقطة على مضيق البوسفور،فكانت لها من الأهمية عند تحصينها (الصباغ، 2013.ص :20)و (بروكلمان،1965.ص :430)،بها تحكم في عبور السفن من شرق المضيق إلى غربه،ثم عمد إلى الاهتمام بجمع الأسلحة كالمدافع التي أولاها اهتماما خاصا ،كما أهتم بتقوية الأسطول،وتزويده بمختلف السفن اللازمة لمهمته الهجومية بحرا (الرشيدي، 2013.ص : 90)،بعدها عقد معاهدات مع الأعداء للتفرغ لعدوه البيزنطي، فكما عقد معاهدة مع إمارة غلطة المجاورة لمدينة القسطنطينية شرقا–الفاصلة بينهما القرن الذهبي–تسالم مع المجر والبندقية،ثمّ وفّر المؤن والأرزاق لجيوشه تحسبا لطول مدة الحصار. (روسينمان، د ت ن.ص :603)،و(الطيار،2002.صص :11–12)،و(عبدالفتاح، 1975.ص :656).

أما عن أسباب اهتمامه بالمدينة،فذلك راجع لموقعها الفريد بين مدن العالم،عند ملتقى القارتين الأسيوية و الأوروبية،محاطة بالبحار من ثلاث جهات فالبحر الأسود شمالا،و مضيق البسفور شرقا،وبحر مرمرة جنوبا،و قد ميّزها الله بخصوبة أراضيها،وقوة مناعتها، مع شساعة و أمن موانئها سيما ميناء القرن الذهبي،محل تمركز التجارة البرية و البحرية(الحموي،د ت ن.ص :359)،وعن أهمية موقعها يقول نابليون: " لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها"(الطيار،2002.ص :13)،وما كثرة الغزوات عليها إلاّ برهان ساطع،و حجة قاطعة على أهمية المدينة،و حصانة موقعها،إذ شهدت حصارا مرارا و تكرارا (ماجد ، د ت ن.

ص :48)،وبفتحها من قبل الفاتح أطلق عليها اسم إسلام بول، أو دار الإسلام ،أو دار السعادة(القرشي و آخرون، د ت ن.ص :368).

من الأسباب التي جعلت العاصمة البيزنطية صامدة لمثل تلك المحاولات لفتحها نذكر منها حصانة المدينة جغرافيا،إذ تحيطها البحار من ثلاث جهات،ثم لمناعة أسوارها،و استعمال وسائل دفاعية قوية كالنار الإغريقية،وهو ما أهلك عتاد و رجال الحصار، ناهيك عن تفاني أهلها في الدفاع و الذّود عنها أمام مناخها البارد، و الذي حال دون تحمل المسلمين المعتادين على حرارة مناخ موطنهم الأصلي،ثم أنه كان لعامل الأمواج،و التيارات البحرية،والرياح كل الأثر البالغ على حركة السفن و الأساطيل الإسلامية، ناهيك عن طول مدة الحصار،ممّا أثّر في قلة الإمدادات،وتسبّب في الجوع،وضعف المقاومة التي أنهكت القوى الإسلامية أمام طول المسافة التي استغرقتها للوصول إلى المدينة،يضاف إلى ذلك سوء التدبير،والذي تجلى في سوء تطويق المدينة من كل الجبهات.

كان لمحمد الفاتح أن حقق بشارة المصطفى عليه السلام، بفتح المدينة على يديه،فكان نعم الأمير الذي قاد نعم الجيش،ولعل أسباب الفتح نذكر:

– ضعف الدّولة البيزنطية أمام إصرار و حنكة جيوش الفاتح عدّة و عتادا لتحقيق رغبة الأجداد.

– حماس العثمانيين للتوسع على حساب غيرهم،و نشر راية الإسلام،وتأمين حدود دولتهم أمام احتضان المدينة،وتشجيعها لأعداء الدولة العثمانية،فكان حصارها ضرورة حتمية اقتضتها سياسة الدولة البيزنطية المعادية للإسلام.

– الأهمية الجيوسياسية للمدينة في ضمان أمن الدولة العثمانية،سيما بوصايا جدّ مُحَمَّد الثاني السلطان عثمان بفتح المدينة،والتي تناقلت أبا عن جد.

– سيطرة المدينة على طرق الاتصال بين الجزء الأسيوي من الدولة العثمانية و جزءها الأوروبي،ورغبة هذه الأخيرة في تأمين سيادتها على بحر مرمرة على وجه الخصوص،سيما و أنها ليس بجوارها،ولا بحوزتها أسطول كفيل له لتحقيق لها الغاية هذه،فكانت بذلك حجر عثرة لسلطنة آل عثمان لضمان سيادتها،وتوسعها في الجزء الأوروبي أمام ازدياد مساومات السلطان قسطنطين لحمد الفاتح،ومطالبته إياه بمصاريف أخيه أورخان و إلاّ شجعه و حرضه عليه بعد إمداده عتادا و عدة، لتهديده في عرش سلطته.

– أحوال المدينة السيئة، وكثرة أعدائها،و استنزاف مواردها و طاقاتها أمام حالات الترف و البذخ التي انتهجها الأباطرة.

بدأ الحصار العثماني للمدينة البيزنطية في اليوم السادس من أفريل من عام 1453م، فرابطت جيوشه على طول امتداد الأسوار الغربية لها،فتمّ توزيعها بدقة،وطوّقت المدينة برّا وبحرا،وبقوات كثيفة لم تعهدها إبّان الحملات السابقة،بينما كان الوضع مغايرا للقوات البيزنطية القليلة العدد و العدّة،والتي نقصها النظام،وانحطّت معنوياتها،بالرغم من انضمام عدد لابأس به من المرتزقة الجنويين و البنادقة،بقيادة يوحنا يوستنيلي الجنوي للنجدة،و استجابة لنداءات قسطنطين –في الوقت الذي أحجبت فيه كل من فرنسا و بريطانيا المنهكتان القوى عن الاستجابة جراء الصراع الطويل الذي أفضى بضياع ممتلكات بريطانيا في القارة، في وقت كانت فيه ألمانيا ممزقة غير قادرة للوقوف على قدميها،– اكتفى أهل المدينة بأسلحتهم النارية الإغريقية. و باشتداد الحصار العثماني،وازدياد صمود المدينة له،سيما بوصول الإمدادات الجنوية لها،أدرك الفاتح ضرورة تحطيم السلسلة الحديدية المسدّة لعبور سفنه،و وصولها إلى الميناء،لذلك قرّر نقل جزءا من أسطوله إلى داخل الميناء بطريق البر من نهاية غلطة التي يرابط بها الجنويين و البنادقة،في طريق المرتفعات و الأدغال،وكان أن أتمّ ذلك بخطة محكمة،و بها سيطر على القرن الذهبي،و فتحت أول ثغرة في خط الدفاع البيزنطي.

أمام طول الحصار،ونفاذ المؤن،ضاق حال المدينة بأهلها،وأنهكت قوى المدافعين البيزنطيين،وجرّدت الكنائس من ذخائرها لدفع أجور الجنود أملا في مواصلة الحصار،و أمام تلك الوضعية راسل السلطان مُحَمَّد الفاتح الإمبراطور البيزنطي بواسطة صهره إسماعيل بك عارضا عليه السلام و الاستسلام دون قيد أو شرط،مع حقن دماء الجانبين، واتقاء الذلّ والدمار بالمدينة،مقابل تعينه ملكا على المورة،ومنح الحرية الكاملة لمن شاء الرحيل من أهل المدينة للوجهة المرغوبة فيها،مقابل ضمان الأماكن،والسّلام لمن أراد الإقامة بها.

لما كان رد الإمبراطور سلبيا بعد استشارته لمستشاريه الذين عزموا مواصلة الدفاع،حشد السلطان الفاتح كل قواه،وأعلن على ضرورة الهجوم برا و بحرا،كما حفّز جنوده بالغنائم، و ألقى خطبته موضحا فيها أهمية المدينة و فتحها في تحقيق بشارة الرسول(ص)،و وصّاهم على عدم إلحاق الكنائس و المعابد بالأذى،واتقاء القساوسة و الضعفاء و العجزة،وما زاده قوة مطاف علماء المسلمين في معسكرات الجنود الأتراك لحثهم على الجهاد في سبيل الله،وأقيمت الابتهالات،بينما ألقى الإمبراطور البيزنطي في جو قابله باليأس ،والرعب خطبته ألح فيها النصارى على مواصلة القتال في سبيل النصرانية،والتي معقلها بمملكة المدن،وعاصمة الدنيا، القسطنطينية،ثم ذهب إلى كنيسة أيا

صوفيا (عنان،1997.ص :192)معلنا بها توبته،وفي29ماي من عام 1453م هاجم العثمانيون المدينة برّا و بحرا،ونفذوا إليها من باب سير كوبرتا،وقتل الإمبراطور،ودبّت الفوضى، و دخل الفاتح المدينة،ودخل كنيستها مترجلا عن جواده،وأمر بتلاوة القرآن من منبرها بعد أن حوّلها إلى مسجد،ورفع الآذان من فوق قبلتها،وصلّى بها،وطهّرها من تماثيلها و صلبانها و صورها، ثم غير اسم المدينة،وناد المغادرين من سكانها بالعودة إليها في أمان، و عيّن للنّصارى بطريقا ليقوم بالشؤون الدينية والقانونية لأهل الذمة وفقا لتعاليمهم النصرانية،وترك الكنائس محل العبادة لهم،وأمر بإصلاح الأسوار المدمّرة من المدينة،ثم عاد إلى أدرنة بعد أن أتخذ المدينة الجديدة عاصمة للدولة العثمانية.

و يمكن إيعاز أسباب الفتح العثماني للقسطنطينية إلى عدة أسباب منها:

– الخلاف الديني النصراني الذي حال دون توحيد الكنيستين الشرقية و الغربية، مما ترتّب عنه عدم اهتمام البابا في روما بمساعدة قسطنطين الأكبر.

– وجود الخيانة من أهل جنوة و البندقية ،والذي كان لصالح العثمانيين

– قلّة قوة البيزنطيين مقارنة بالاستعدادات العثمانية،ولقد تجسّدت قلّة الاستعدادات في قلة المؤن أمام طول فترة الحصار من الجانب البيزنطي.

– قوّة الأتراك و تفوقهم عدّة و عتادا.

لقد قيلت أقوال عدة لبعض المؤرخين المحدثين الغربيين حول الطريقة التي دخل بها العثمانيين المدينة البيزنطية،إذ ذهب بعضهم كالمؤرخ النمساوي هامر ،و بيرز،وشلا نبرجيه إلى القول بأنه كان في شمال باب أدرنة باب صغير خفي لا يرى يدعى باب الركّ،كان مهملا أثناء الحصار و أغفل إغلاقه،فلمّا قام الأتراك بهجومهم لباب أدرنة لمح بعض الانكشاريين هذا الباب فاقتحموه مندفعين على المدينة،ولعلّ القصد من هذا القول الحطّ من شأن المسلمين و بطولاتهم في فتح المدينة الحصينة طيلة تسع و عشرين حملة لفتحها،كما كان إشادة بقوة النصارى و بطولاتهم. (عنان، 1997.ص :197).

إنّ السّماع لمثل هذه الأقاويل تقودنا للقول ببطلان مثل تلك الأقوال المزعومة، ثم أنّه لم يرو من قبل المؤرخين ممّن كانوا في المدينة إبّان حصارها وفتحها، وهي في مجملها قصص أنفرد بها المؤرخ دوكاس البعيد كل البعد عن ميدان المعركة، ولم يشهد حوادث الهجوم و القتال بها، حتى و إن كان معاصرا للفتح عن بعد.

أمّا عن دخول الجنود العثمانيين للمدينة، فقد صوّر في صورة البرابرة المتوحّشين،فما أن دخلوها حتى أمعنوا في القتل والنهب والسلب و التدمير،فلم يرحموا شيخا كبيرا،ولا امرأة ضعيفة،ولا طفلا رضيعا،واعتدوا على الراهبات و الكنائس،وانتهكوا حرمات المقدّسات علانية،وأحرقوا الكتب،وحطّموا الآثار التاريخية و نسبوا إلى الفاتح أمورا تخل بالدين و الشرف هو منها بريء، و هي في غالبيتها روايات نصرانية قادها مؤرخون بيزنطيون.

كان لسقوط القسطنطينية صدى في العالمين الإسلامي والنصراني،ودويه هائل،ووقعه عظيم،وقد أختلف أثره و وقعه في الغرب عنه في الشرق،أما النصارى في الغرب، فقد صعقهم نبأ الحادث،و انتابهم الشعور بالفزع والذل و الخيبة و الندم،وأتّضح لهم خطر المسلمين،و تهديداتهم للبلاد الأوروبية النصرانية،وخشي الأوروبيون أن يكون مثل هذا الانتصار ما هو إلاّ بداية لتوغلهم في أوروبا،فأخذوا يتتبّعون خطوات الفاتح و تحركاته بقلق و اهتمام شديدين،وعظمت في أعينهم أهمية المدينة و خطورتها،وإفراطهم فيها، و تخاذلهم عن نصرتها،فأوجبت عليهم الدفاع عن دينهم، وصدّ المسلمين من السيطرة على عاصمة النصرانية الشرقية.

بينما كان أثره في الشرق الإسلامي إيجابيا،إذ عمّت الفرحة والبهجة،وشعر المسلمون أنّ الإسلام لا يعلى عليه،ولا يقف في وجهه أية قوة وجبروت، ثم أن الغلبة في نهاية الأمر للإسلام، فأقيمت الزّينات والاحتفالات بالعواصم الإسلامية قاطبة، وممّا نتج عن الفتح الكبير على العالمين الإسلامي و النصراني نذكر:

– تحقيق الحلم القديم الذي لطالما راود بخاطر رجال الخلافة الإسلامية،وشغلوا به حينا أيام قوتها و فتوّها،وعلّقوا عليها الآمال،بدفع الفتوحات الإسلامية إلى قلب أوروبا النصرانية، وهو ما تمّ تحقيقه بعد الفتح.

– لقد كان لفتح المدينة غنما إقليميا وسياسيا توّج بجهودهم في القضاء على الدولة البيزنطية،وفسح لهم الطريق إلى بلاد البلقان و أوروبا،ثمّ أنّ سقوط المدينة كان من أهمّ الأحداث الهامّة الفاصلة في التّاريخ ذو الأثر الواضح في اتجاه التطور البشري، إذا اتخذ من قبل المؤرخين بداية للعصور الحديثة.

– بسقوط المدينة، سقطت الإمبراطورية الرومانية الشرقية في يد العثمانيين الذين نقلوا عاصمتهم من أدرنة إلى القسطنطينية،فصارت مرفأ تجاريا لهم،وتمخّض عن ذلك ازدهار تجارتهم و قوتهم البحرية حتى صاروا أقوى دولة بحرية في المتوسط آنذاك، و بها توغّلوا في البلقان،فاجتازوا الدانوب،وأسقطوا أثينا في يدهم عام1456م،و استولوا على المورة و الصرب و الجبل الأسود و ألبانيا،واهتزت أوروبا

الشرقية النصرانية برّا و بحرا أمام القوة العثمانية التي أخذت في التعمّق في البحر المتوسط مهدّدة سيادة المدن الإيطالية، وما أن أتى القرن السادس عشر الميلادي حتى تمكّنوا من بسط نفوذهم على مناطق شاسعة من أوروبا كالمجر،ورومانيا،وأجزاء من النمسا،بحاصرهم الفاشل لفينا عامي 1529م و 1683م.

– هجرة العلماء و الفلاسفة النّصرانيون إلى غرب أوروبا حاملين معهم أنفس الكتب القديمة، فانتشرت العلوم بها بين القرنين الخامس عشر و السادس عشر الميلاديين،كما ارتفعت أسعار المواد المستوردة من الشرق كالشاي و التوابل أمام استيلاء العثمانيين على طرق التجارة المؤدية إلى أوروبا،وهو ما دفع بالأوروبيين للبحث عن طرق تجارية جديدة تسهّل عليهم استيراد سلع الشرق بدون عناء العثمانيين،كما كان للفتح أن حفّز حركة الكشوف الجغرافية الأوروبية إبان القرن الخامس عشر الميلادي.

– اهتزّت أوروبا الشرقية بتجدّد قوى الشرق الإسلامي عدو أوروبا اللّدود مع فقدان البابوية لمعقلها الدّيني بالشرق.

– أدّى سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين إلى سقوط جنوه،والبندقية،وسائر المدن الإيطالية أمام توقف عظمتها التجارية مع القسطنطينية و مصر، و بسقوط الأولى في يد العثمانيين فرضت على تجارتها ضرائب باهضة.

– كان لسقوط المدينة البيزنطية بداية لظهور المسألة الشرقية على مسرح الأحداث،والتي اكتسبت طابعا دينيا في إطار الحروب الصليبية ضد القوة الإسلامية بزعامة العثمانيين ،بعدما أضحوا بعاصمتهم الجديدة مركز الإشعاع الفكري في العالم،وأضحت دولتهم من الإمبراطوريات العظيمة ذات الهيبة الدولية،نالوا بها فخرا.

–كان لفتح المدينة بادرة خير تجسّدت بسلسلة من الانتصارات الأخرى، وانضمام أقطار إلى السلطنة الإسلامية، فازدادت قوتها العسكرية، و مارست سياسة التسامح الديني مع أهل الذمة لإقامة شعائرهم الدينية و المذهبية، وضمنت حرية التصرف في أملاكهم.

2–سلسلة فتوحاته العسكرية :

كان لفتح القسطنطينية عظيم الأثر في مصير الدولة العثمانية بأوروبا،بعد أن أضحت وريثة الإمبراطورية البيزنطية،ولما كانت سيادة العثمانيين أسمية على أجزاء من البلقان،قرّر مُحَمَّد الفاتح إخضاع الصرب بالاستيلاء على معظم مدنها سنة1455م،ثمّ زحف على العاصمة المجرية بلغراد في 1456م محاصرا إياها إلا انّه أخفق في الاستيلاء عليها أمام قوة الأسطول الصليبي، ففشل الهجومين الأول والثّاني دون تحقيق مراده فيها .

تمكّن السلطان من ضمّ الصّرب إلى دولته عام1459م،فالبوسنة عام 1463م،كما ألحق بالهرسك لإشرافه على البحر الأدرياتيكي،وانصرفت جهوده للاهتمام بفتح أثينا،و جزيرة المورة، فالجزر الأيونية. فأمّا أثينا فقد تمكّن من ضمّها عام 1456م ليتمّ دخولها كلية في كنف الدّولة العليّة عام 1459م،ثم عمد إلى فتح جزر الايجه في مضيق الدّردنيل بين 1455م– 1462م،فعرّج على ألبانيا التي تأخّر فتحه لها إلى ما بعد 1467م، أما عن الأفلاق والبغدان الرومانيين،فقد هزم قوات الأفلاق (ولاشيا) عام 1462م،بينما فشل في هجومه على البغدان (مولدافيا) عام 1476م بعد أن قاد الهجوم عليها،ولم يتم للعثمانيين بسط يدهم عليها إلا زمن السلطان با يزيد الثاني عام 1488م .

بقيت بعض الجيوب و الإمارات بجنوب و شرق أسيا الصغرى غير خاضعة للسيادة العثمانية،كإمارة طرابيزون المسيحية وإمارة سينوب في جنوب البحر الأسود،وقد قرّر الفاتح توجيه حملات إليها قصد إخضاعها فكان له ذلك عام 1473م ،ليتمّ توحيد أسيا الصّغرى،وبسط سيادته على البحر الأسود الجنوبي،والقضاء على الوجود الجنوي على ساحل القرم،لتدخل من جهتها شبه الجزيرة بأكملها في سلطة الدولة العثمانية بداية من سنة 1475م،و بها تمكن من سدّ الأبواب أمام النفوذ الروسي إلى البحر الأسود الواصل بين الشرق الأوسط و المياه الدّافئة ، ليظلّ بحيرة عثمانية بعد أن امتدّت سيادتها إلى بحر الأوزوف و شواطئ روسيا الجنوبية فأكرانيا .

أمّا عن الصراع مع البندقية الصّاعدة إلى الاستيلاء على بقايا الممتلكات البيزنطية في بحر الإيجة،فقد دخلت في صراع مرير ضدّ الدّولة العلية منذ1416م،وبسقوط القسطنطينية رضخت لدفع الغرامة الحربية ودفع الرسوم على بضائعها التجارية،بعد اتفاقه ودي مع الفاتح عام 1454،وأمام سوء نيتها دخلت في صراع مرير منذ1463م،تجسّد في معارك حربية طال أمدها لسنوات طوال رضخت

بموجبها إلى صلح مهين عام 1479م،تخلّت بمقتضاه على ممتلكاتها في بحر الأدرياتيك،كما تعهّدت بضريبة مالية سنوية بغرض ضمان حق تجارتها في الأراضي العثمانية.

ببقاء رودس ملجأ قراصنة البحر المسيحيين المهدّدين للتجارة العثمانية مع مصر باسم فرسان القديس يوحنا،و المتّخذين من بحر الايجه وكرا لهم، عزم الفاتح إرضاخها بحملة بحرية عام 1480م،إلاّ أنها استعصيت لحصانة قلاعها،و مناعة موقعها،فعمد السلطان بتكرار حملة بحرية ثانية بقيادة أحمد كدك باشا(سيدي رضوان،1997. ص :60).فاحتل بموجبها شواطئ إيطاليا ترنتو 1480م، وباستعداده لمواصلة الزحف على العاصمة الرومانية روما للدخول في الأراضي الإيطالية، فاجئ الموت مُحَمَّد الفاتح مما حال دون التقدم إلى إيطاليا .

ج–أعماله الحضارية:

لم تكن عظمة السلطان الفاتح لتظهر فقط في جانب الفتوحات التي قادها،وفي السياسة البارعة التي خطاها،بل لمسناها من إنشائه لحضارة إسلامية زاهرة تجلت من خلال منجزاته الحضارية الهامة،على عكس أقول بعض المؤرخين المتعصبين أمثال Pjaque irenné،الذي أنكر الدور الرائد الذي قاده الأتراك العثمانيين في المجال الحضاري، مؤكدا دورهم البارز في التدمير للثقافة،بكونهم جنود محاربين،وهو رأي بعيد عن الدقة و الصواب. إذ أن تاريخ الأتراك بالرغم من قيامه على أساس الحروب و التوسعات إلاّ أنهم لم يكونوا على طراز الفيكينغ،أو القوط،أو الهون،و التتار الشرقيين.ذلك أن تعاليم الإسلام هذّبت نفوسهم قبل أن يبرزوا فاتحين عظام على مسارح أوروبا،فأضافوا بإسهاماتهم في تشييد صرح الحضارة الإسلامية التي وضع حجرها الرسول (ص)قبل ثمانية قرون حلت لتزدهر في عواصم الشام،و بغداد، و القاهرة، و قرطبة، فالأستانة شاملة لمجالات عدّة في الأدب،والعلم،والقانون،والترجمة.

- **التنظيمات الإدارية والقانونية:**

عادلت خبرة السلطان الفاتح في الأعمال الحربية مهارته في الأعمال المدنية، فإليه ينسب ترتيب الحكومة على نظم جديدة،حتى ظهرت بتسمية الباب العالي(بك المحامي،1981.ص :177)،وأنشأ لها ديوانا من أربعة أركان،يجتمع رجاله في القصر السلطان قبل ظهر كل يوم باستثناء أيام العطل الرسمية،و كان يتشكل من الوزير الأعظم، وزراء القبّة، قضاة العسكر،وقاضي استانبول،وأغا الانكشارية،وبعض كبار رجال الدولة(فهمي، 1993.ص :152).

لقد وكلت للديوان مهمة الإنصاف و إحلال الحق،وتصدر قراراته من قضاة إسطنبول، أما عن مهام الديوان فتتلخص في دراسة المواضيع المدنية الهامة،أمام استقلالية و حرية القضاة. ثم قام بتقنين الشّرع،بتشكيل لجنة اختارها بنفسه بدقة ،وتمعّن من كبار العلماء ،ووضع قانون نامة كدستور لحكم دولته، مكوّنا من ثلاثة أبواب، منها ما ينظّم مناصب الموظفين،وبعض التقاليد الخاصة بالتشريفات و الاحتفالات السلطانية، كما أقرّ العقوبات و الغرامات،ونصّ على جعل الدولة حكومة إسلامية. تم نظّم جهازها الإداري، فبعد السلطان نجد الصدر الأعظم،و معه أربعة وزراء مساعدين له، بينما يقود الجيوش،و يترأس الديوان الصدر الأعظم.

كما أبقى السلطان الفاتح على النظام الإداري السائد لحكم الولايات أيام أسلافه، مع إجراء بعض التعديلات الطّفيفة عليه،و المتناسبة و عصر دولته،إذ كانت الدولة تقسّم إلى ولايات كبرى تحت حكم أمير الأمراء باسم البكلربك،ثمّ إلى ولايات صغيرة تحت حكم أمير اللواء باسم سانجق بك،وكلاهما يهتمّان بالأعمال المدنية و العسكرية معا، بينما ترك لبعض الإمارات الاستقلال الداخلي،ولأمرائها مهمّة توليته أمورها،مع إعلان توليتهم، و تبعيتهم للسلطان، و تلبية الدعوة للجهاد كلما اقتضى لأمر.

سنّ السلطان الفاتح كل ما يتطلّبه كيان الدولة،وأرسى أسسها بدرجة يضمن لها السلامة الأمن داخليا و خارجيا،من خلال جملة من القوانين التي سعى بها لتنظيم شؤون الإدارة الداخلية، وتحديد اختصاصات كبار رجال الدولة، وتقاليد و مراسيم و تشريفات لقّب من أجلها بالقانوني(فهمي،1993.ص :151)،واستحدث لذلك تشكيلات فاتت بها الدولة كبار الدول المعاصرة لها،وأضحت بها نموذجا يحتذى بها،مستفيدا بذلك من كل الظروف المحيطة به، مستلهما من كل الحضارات التي سبقت دولته.

- **اهتمامه بالتعليم والعلوم:**

لم تكن عناية السلطان بالعلم و الثقافة أقل شأنا من عنايته بالجوانب السياسية و العسكرية،سيما الحروب و الفتوحات منها، فقد كان احترامه للعلماء،و رجال الدين شديدا، لذلك عمل جاهدا لجعل دولته موطنا للعلم،ومجمعا للعلماء و الشعراء، ومركزا للعدالة،فبفتح القسطنطينية اتّسعت البلاد،وتباينت الموضوعات بتباين قوميات الدولة، و أقتضى بها مضاعفة العناية بالتعليم والقضاء،لذلك أنشا مؤسسة علمية كبرى في العاصمة الجديدة،أوكل إليها مهمة تكوين العلماء المتبحّرين في العلوم سيما الدينية منها،واستقدم لهذا الغرض كبار العلماء و الأساتذة الإسلامية

الأخرى،وأغراهم بالتكريم و الأنعام، فتخرّج على أيديهم علماء، وفقهاء، ورجال فن و أدب، كما أنشأ مدرسة أيا صوفيا و ولّى عليها خاسرو، و قصدها الطلاب،كما نظّم مراحل التعليم بالمدارس التي حملت اسمه في أربع مراحل أهتمّ بمجملها سيما في المرحلة الأولى، إذ كانت تدرس فيها مبادئ العلوم ، و الرياضية، و الطبيعية علاوة على الاهتمام بالقرآن و تلاوته.

عند إتمام المراحل الأربعة بنجاح، يخول للمتعلم الالتحاق بمدارس الصحن التي أنشأها، و التي تعدّ بمثابة جامعات علمية كبرى تتكوّن من المدارس الثماني المبنية حول جامع الفتح، وبجوارها توجد المدارس الموصلة للصحن،و هي ثمان تحت اسم مدارس التتمة (فهمي، 1993.ص :158)،كما أنشأ بجوارها مطعما خيريا،ومستشفى كامل المعدّات، كان بمثابة مستشفى تعليمي لتمرّن طلّاب الطّب فيه أسرار المهنة،وعلاوة على تهذيبه للمناهج،وتطويرها،فقد أنشأ الأوقاف على المدارس،ونظّمها،ورتبها،ووضع نظام الامتحانات،وأوصى بمجانية التعليم،وأهتم بمساكن الطلبة،ومنحهم راتبا شهريا (الصلابي، 2006.ص :142).

- **الإنشاء والعمران:**

أولى الفاتح أهمية بالغة لحركة الإنشاء و التعمير،وقد تجلّت في سلسلة المباني الفخمة، و الطرق،والجسور التي أنشأت في عهده،كما خص القسطنطينية بأعظم قسط من العناية و الاهتمام، فبدخوله لها عيّن محافظا لها عهد إليه مهمة الإشراف على تعميرها،وتخطيطها من جديد،وإعادة أسوارها المحيطة بها،والمحطّمة خلال حصاره لها،كما بنى عند طرفها الجنوبي الغربي إلى جانب بحر مرمرة قلعة الأبراج السبعة (يدي قوله)، و أنشأ بها أحواضا لبناء السفن،وترسانات لإنتاج الأسلحة و الذخائر الحربية بها،كما بنى قصرا وسط المدينة عام 1454م،أضحى فيما بعد مقرّا للوزارة الحربية، أتخذ مقرّ إقامته له بالمدينة،وبعد إحدى عشر سنة بنى قصرا جديدا ليكون مقرا للحكومة عرف باسم سراي طوب (سيد رضوان، 1986.ص ص : 72-74).

كما عرف بتشييده لجامعه الكبير في قلب العاصمة،والذي حمل اسمه (جامع الفاتح) عام 875هـ/1470م،بعد أن شيّد ضريحا على قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري،و جانبه بجامع عام1458م،وجامع الشيخ البخاري بجانب باب أدرنّة،و جامع الإنكشارية (أورطي جامعي)،و جامع كوتشك أيا صوفيا (جامع اياصوفيا الصغير) على بحر مرمرة، و جامع زيرك على القرن الذهبي،حتى أضحت مدينة القسطنطينية مدينة الجوامع الممتازة في العالم الإسلامي(سيد رضوان،1986. ص :76) ولقد أوكل إلى بعض المهندسين المعماريين من غير المسلمين مهمّة

تشييد بعض الأبنية كالمهندس المعماري كريستوبول، فأجازه بحارة مسيحية لتكون ملكا له و لذريته من بعده،و شجّع الوافدين من التجار و أصحاب رؤوس الأموال، كما بعث إلى ولّاته بالأناضول، و الروملي طالبا إياهم إرسال جماعات لإسكان المدينة بعد أن هيّأ لهم فيها وسائل العيش و الحياة من حمامات عامة، وأسواق،ومحلات تجارية،وحدائق عامّة،و أدخل الحياة إليها عبر القناطر راغبا منه في جعل المدينة أجمل عواصم العالم، و حاضرة العلوم و الفنون.

لقد كان لمحمد الفاتح الشأن و الدور الكبيرين لأن تصل مدينة القسطنطينية إلى المكانة التي حضيت بها في زمنه، بجعلها عاصمة للدولة العثمانية بمقتضى قراره،فأضحت بموجبه مركزا للسياسة العالمية ،ومحورا لها(فهمي، 1993.ص :164).

- **الجيش و البحرية:**

انصبّ اهتمام السلطان الفاتح على الجيش،وأولاه عنايته الخاصة به،باعتباره أساس الدولة،وعماد قوّتها،فأعتني بإعادة تنظيمه و قيادته،وكان لكل فرقة قائد سمي بالأغا، و جعل لأغا الإنكشارية أحقية التقدّم على بقية القواد الآخرين، يتلقى أوامره من الصدر الأعظم،كما أنشأ لقب أمير البحر(قبودان باشا) قصد تنظيم الأسطول من قواد، و ضباط ،و بحّارة.

دعّم أبو الخيرات انجازاته العسكرية بإنشاء دور للصناعة العسكرية لسد حاجات الجيش من ملابس، وسروج،ودروع،ومصانع ذخيرة و أسلحة،و أقام القلاع و الحصون في المواقع العسكرية المهمة،ونظّم الجيش من فرسان،و مشاة،و مدفعية،وأنشأ صفّ اللغمجية المختصّ في حفر الألغام و الأنفاق،وعيّن السقاؤون(فهمي، 1993.ص :161)،كما كوّن جامعة عسكرية لتكوين المهندسين،والأطباء،والبيطريين داخل القصر السّلطاني تحت اسم أندرون همايون، لإعداد الجيش بالفنيين المختصين.

د–وفاة السلطان الفاتح وموقف العالم منها:

بعد حكم دام إحدى و ثلاثين عاما، حقّق فيها من جسام الأعمال الشيء الكثير ، و ما عجز سابقوه،وفتح به عهدا جديدا في العالم الإسلامي، غيّر مجرى تاريخ العالم كله، جاء الأجل ليأخذه وسط جيشه في الخامس من ربيع الأول من عام 886هـ الموافق ل3 ماي 1481م في أسكدار،وهو في سنّ الحادية و الخمسين من عمره بعد وعكة انتابته، فاشتد به المرض،و هو على أهبة الخروج بجيشه إلى حرب جديدة ربما كانت وجهتها إيطاليا،و دفن في جامعه المشيّد باسمه في

القسطنطينية،فبكاه شعبه و المسلمون قاطبة، و عمّ العزاء و الرثاء أقطار العالم الإسلامي لفقدانها سيفا من سيوف الله المسلولة في نشر الإسلام،بينما قامت مظاهر الفرح في أوروبا كلها،وأقيمت الأفراح في عواصمها،وأدّيت الصلوات في روما و كنائسها بأمر من البابا،وأتّخذ من يوم وفاته عيدا،و تنفّست جيوش و أهالي أوروبا الصعداء، و عمت المواكب تحوب الشوارع بأناشيد النصر، و الفرح ،و طلقات المدافع طيلة ثلاثة أيام.

كان الفاتح من زمرة القادة العسكرية الذين عرفتهم الدولة الإسلامية،كما كان سيد المفتيين،وصاحب ذوق أدبي رفيع،جامعا كمال الرجولة، ومظاهر العظمة، ولعلّ مثل تلك الصفات جملها في وصيته لابنه، والتي كان مضمونها العدل،و الصلح،و الرحمة،وحماية الرعية،والعمل على نشر الدين الإسلامي،والاهتمام بأمره،و بمعتنقيه،و الابتعاد عن البدع، وتعظيم الجهاد،والحرص على أموال الرعية،والأرامل،والمعوزين،والمستحقين،وتعظيم العلماء، و عدم الاعتزاز بالجنود و المال، و جعل الدين غايته ،و الهداية منهجه.

هـ موقف المؤرخين من الدولة العثمانية زمن الفاتح:

من المؤرخين المسلمين ممّن تحاملوا على الدولة العثمانية ،نذكر المؤرخ المصري مُحَمَّد عبد الله عنان،والذي كانت له نظرة حقودة على التاريخ العثماني،وهذا بتشبيهه إمبراطورية الفاتح بإمبراطورية جينكيزخان و تيمورلنك،مجاريا بذلك لكل ما قيل من المؤرخين الأوروبيين المتعصبين أمثال كبن، هامر، بيوري، موردتمان،والذين كانوا منبعا له استقى منه معلوماته، مدفوعا بكراهية لا نظير لها للأتراك،متجاهلا لحقائق تاريخية عنهم،كفضلهم في إنشاء حضارة إسلامية،و هو في ذلك نوع من الزيف و المغالطة،ونكران لجميل أمة،و لأفضالها على الإسلام و أمته،و على البشرية جمعاء،و لأدلّ على زيفه ما قاله الباحث الأمير شكيب أرسلان في نهاية كلامه عن فتح القسطنطينية، بذكره للآثار العثمانية بها قائلا "بعد تأملاته في فضل السلاطين العثمانيين الذين أثّروا بآثارهم العظيمة، و فيها لهم فخرا في الدنيا،و أجرا في الآخرة، ضمّوا إليها فتوحات أشاد الزمان بذكرها، وارتعدت لهم الدول الأوروبية بأجمعها إلاّ المكابر الجاحد المحاول للتستر على نور الشمس بيده، إلاّ أن التاريخ شاهد أمين لا يكذب أهله"(شكيب، 1392هـ.ص :237) .

ممّا نذكره في تعصّب المؤرّخين الأوروبيين لمحمد الفاتح، ما قاله مؤرّخ الدولة العثمانية في القرن19م، السّيد إدوارد كريزي في كتابه تاريخ العثمانيين الترك،والذي وصف فيه فتوحات الفاتح بالموضوع الكريه،وكذلك الشأن للمؤرخ الفرنسي Guillet إبان القرن 17م ،بكتابه المؤلف عن حياة

السلطان مُحَمَّد الفاتح وأهداه إلى لويس 14 إذ قال في مقدمته: "إذ يسأل الله لفرنسا طول البقاء،وأن يهب لها المجد والسّؤدد والقوة و السعادة، ويرجو من الربّ أن لا يظهر مرة أخرى على وجه الأرض حاكم كالسلطان مُحَمَّد الفاتح، فقد كان حكمه بلاء،ونكسة على النصارى و النصرانية، هذا ما يجب أن يتمناه دوما بدون انقطاع ليس الفرنسيون وحدهم، بل جميع الشعوب النصرانية الأخرى"(الرشيدي،2013.ص :423).

بينما عمد كل من المؤرخ الإنجليزي إدوارد شيبرد كريسي في كتابه تاريخ العثمانيين الأتراك، و كذا الموسوعة الأمريكية المطبوعة عام 1980 إلى تشويه صورة الفاتح، و إظهار صفاته التي وصفوها بالقبح،حين اتّهمه باسترقاق السلطان الفاتح لنصارى القسطنطينية،وسياقهم إلى أسواق الرقيق في أدرنة حيث تم بيعهم هناك، في وقت أوصى فيه جنوده بحسن معاملة الأسير و الرفق به، و افتدى عددها هائل من الأسرى من ماله الخاص، و أجتمع بالأساقفة مهدأ من روعهم، و أمنهم على عقائدهم و شرائعهم.

بدى رأي المؤرخ الفرنسي الشهير فولتير إبان القرن الثامن عشر مخالفا لكل ما قيل في حق الفاتح، بتأكيده لمعاملة الأتراك للنصارى بالحسنى سواء في القسطنطينية أو اليونان أو البلقان في جو الأمن و الطمأنينة، ذلك أنه في الوقت الذي لم يحرص النصارى أن يكون للمسلمين مسجدا ، سمح الأتراك لليونانيين المقهورين بأن تكون لهم كنائس تحت مراقبة حكّامهم،وقد قال المؤرخ الإنجليزي اللورد كتون في معيشة المسيحيين في البلقان "أنهم راضين مطمئنين في بلادهم في عهد الفاتح و بعده، وتمّ تفضيلهم عن اللاتين أو النصارى التابعين للبابا" (سيد رضوان،1986.ص ص :93 – 95) ،ثم أشاد بمعاملة الفاتح لبطريق القسطنطينية عند انتخابه بكل مظاهر التبجيل و الاحترام.

الخاتمة:

فقدت الأمة الإسلامية بوفاة الفاتح واحد من أعظم رجالتها ممن وسّعوا من خريطة الإسلام ،وأدخله إلى عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، فاليونان، و أوكرانيا الروسية مهدّدا بذلك البابويتين في عواصمهما، و الجيوش الأوروبية في بسالتها، و صمودها، و يكفيه فخرا أنه حقق بشارة الرسول(ص) فيما فشل فيها خلفاء، و سلاطين ممّن سبقوه، فدانت له أوروبا، وأجزاء من أسيا،و البشرية قاطبة.

الهوامش:

1. أرسلان، ش. (1392هـ). *حاضر العالم الإسلامي*. مصر.ج2. ص.237.
2. أف كوندور، أ.، اوزتك، س. (2009). *الدولة العثمانية المجهولة*.البحوث العلمية.ط1. ص.21.
3. بروكلمان، ك. (1965). *تاريخ الشعوب الإسلامية*. ترجمة نبيه أمين فارس، ط5. ص.430.
4. الحموي، ي. (د .ت .ن). *معجم البلدان*. ج4. ص.359.
5. رسينمان، س. (د .ت .ن). *الحضارة البيزنطية*. ترجمة عبد العزيز توفيق. ص. 603.
6. الرشيدي، س. (2013). *السلطان مُحَمَّد الفاتح*. مصر :دار البشير للثقافة . ط2. ص.90-423.
7. سيد رضوان، ع. (1986). *السلطان مُحَمَّد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية*. جدة : دار السعودية للنشر والتوزيع. ط1. ص.11-95.
8. الصباغ، ع . (2013). *تاريخ الدولة العثمانية*. *ص.20*
9. الصلابي، ع.م. (2006). *فاتح القسطنطينية للسلطان الفاتح*. مصر: دار التوزيع و النشر الإسلامية، القاهرة. ط1. ص. 83-142 .
10. الطيار،ف. (2002). *فتح القسطنطينية*. تبوك: مكتبة الملك فهد الوطنية. ط1. ص.11.
11. عاشور، ع. (1975). *أوروبا عصور وسطى*. القاهرة:مكتبة الأنجلو مصرية. ط6.ج1. ص.656.
12. عنان، م.ع. (1997). *مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام*. ط5. ص.192-197.
13. فريد بك، م. (1981). *تاريخ الدولة العلية العثمانية*. بيروت:دار النفائس. ط1. ص.177.
14. فهمي، ع.ع. (1993). *السلطان مُحَمَّد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم*. دمشق :دار القلم للطباعة والنشر. ط5 . ص.31-164.
15. القرشي، ع.ا.، وآخرون. (د. ت. ن). *الموسوعة العربية العالمية*. ج2. ص. 368.
16. ماجد، ع. (د.ت. ن). *التاريخ السياسي*. ص. 48.
17. ملزياتريك، م. (1986). *صفحات من تاريخ تركيا الاجتماعي و السياسي و الإسلامي*. ط1. ص.21-22.